الفصل السادس

المقاصد الكبرى
لآيات عرض الشخصيات الواردة بكتاب الله تعالى

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾

[الأحزاب: ٢١]

﴿ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الصافات: ١٨٢]

﴿ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴾ [ص: ٤٧]

﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ٣٠]

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام: ٩٠]

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾ [غافر: ٢٨]

«وأن الشخصيات معروضة للتأسي، وسبيله المعايشة، ولن يتحقق إلا بالاحتكاك المباشر بهم من خلال كلمات رب العالمين سبحانه وتعالى، وأن تعرف أن كلماتهم ومواقفهم لا تأتي من فراغ بل وراءها من التربية والجهد وسوابق الأعمال، ومأخذ خاص للحياة يتخذه العبد، وهدف يتغياه الشخص، فكما يتغيا الكثير تملك الأموال أو تبوء منصب أو كرسي معين، يتغيا المؤمن أن يكون قريبًا من شخصيات هذا الكتاب الكريم هدفًا لحياته».

مقدمة

في هذا الفصل قصدنا إلى عرض باب عظيم وكنز ضخم في التربية تضمنه كتاب الله تعالى ..

فلا يكفي مجرد العلم بهذا الدين أو تلقي المعتقد الصحيح .. بل لا بد من التربية وتَمَثُّل قيم الإيمان ومعايشتها فيمن تمثلت فيهم بمستويات فائقة رضيها الله تعالى من أصحابها وأثنى عليهم .. في أروع نماذج بشرية اختارها الكتاب العزيز لعرضها ممثلة في الأنبياء والصحابة والمؤمنين المجاهدين على مر العصور .. أخوة على دين واحد مهما اختلفت شرائعهم.

وقد قصدنا في هذا الفصل نقطة أساسية وهي معرفة: (أن الفارق الكبير في القدرة على الاحتكاك بالأنبياء وغيرهم هو أن تعلم العمق الذي كان وراء الكلمة والعمق وراء الموقف، وهذه هي النقطة الفارقة في الأمر.

إن الكلمة أو الموقف الذي يذكره القرآن لن تفهم قيمته ولن تتأسى به وتتأثر كذلك إلا إذا علمت أن وراء الكلمة والموقف والعمل بُعد وعمق هو الذي أنتج هذا، وهو الذي يجب أن تبحث عنه؛ فالأسوة إنما تكون بظاهر الحال وباطنه من المعاني التي تدفع لهذه المواقف والأعمال).

والمهم أن لا يغيب عنك عمق الأمور، سواء:

العمق الشخصي لتعرف شخصيته وكيف رباها ونمّاها وزكاها وكيف نطق بالكلمة أو اتخذ موقفًا ما فتعرف أن له أبعادًا شخصية، وأن عليك بذْل هذا الجهد لتكون جاهزًا في المواقف.

والعمق الإيماني وأبعاده من التربية وتركيم التعبد والإحسان، والتعرّف على الله، وتربية النفس ومرانها وتعويدها على المعالي، وإبائها عن النزول عن القمم.

وأن الشخصيات معروضة للتأسي، وسبيله المعايشة، ولن يتحقق إلا بالاحتكاك المباشر بهم من خلال كلمات رب العالمين سبحانه وتعالى، وأن تعرف أن كلماتهم ومواقفهم لا تأتي من فراغ بل وراءها من التربية والجهد وسوابق الأعمال، ومأخذ خاص للحياة يتخذه العبد، وهدف يتغياه الشخص، فكما يتغيا الكثير تملك الأموال أو تبوء منصب أو كرسي معين، يتغيا المؤمن أن يكون قريبًا من شخصيات هذا الكتاب الكريم هدفًا لحياته.

إن المقصود أن التربية لن تحدث إلا من خلال معايشة واحتكاك يقصد بها استبيان هذه الشخصيات العظيمة وخصائصها وصفاتها للانطباع بهم والتغير بالتأثر بهم.

وذلك لئلا نركن إلى بيئاتنا المعاصرة، وهي بيئات هزيلة مترعة بالشهوات والانحرافات، ومتسمة بالميوعة والضعف وبالالتواء ..

ومتسمة أيضًا بالذل والخوف والاستعباد ..كما يغلب عليها السطحية وتفاهات الأمور..

فالذهاب إلى هؤلاء الكرام وعلى رأسهم خير الخلق محمد ﷺ فوز عظيم وفرصة هامة للخروج من تأثير هذه البيئة التي يتحكم فيها اباحيون وشواذ وملحدون ومستأجَرون وملمَعون.

والجهد المبذول في هذا الفصل كان في استكشاف بُعد كلماتهم ومواقفهم لمعرفة ما وراءها من صفات شخصية فذة وعمق إيماني عظيم ..

والمقصود استنهاض همم المسلمين لتكوين **العمق الفردي للشخصية المسلمة** المعاصرة لتكون النوعية الموجودة نوعية فريدة ومتميزة وعلى مستوى التحدي كشخصيات فذة قادرة على المواجهة والخروج بالأمة من حالة القهر والغيبوبة والفشل ... وللنجاة الشخصية أمام الله تعالى في الآخرة ..

والله تعالى من وراء القصد وبه التوفيق وعليه التكلان سبحانه . .

المقصد العام في الآيات التي عرضت الشخصيات المؤمنة هو

الاحتكاك بهم ومعايشتهم للتأسى والإنطباع بهم ..

وذلك بمعرفة العمق الذي كان وراء الكلمة ووراء الموقف .. العمق الشخصي .. والبعد الإيماني

وهذا المقصد العظيم هو الذى نتتبعه في هذا الفصل ..

فقد عرض القرآن الكريم شخصيات كثيرة .. شخصيات بشرية خيّرة .. عرضها خلال القصص الكريم .. وكان يمكن أن نعرض لها خلال الحديث عن القصص .. لكننا آثرنا أن نترك القصص لمغزى محدد عن طبيعة دين الله تعالى وطبيعة تحركه لتصحيح انحراف النفوس بأفكارها وشهواتها ولتصحيح الأوضاع الظالمة والمنحرفة.

* * *

لقد ذكر الله تعالى شخصيات في كتابه لا تكاد تُصدِق أن الله تعالى يذكر كل هذا الثناء على أشخاص مثلنا كانت لهم دوافع كدوافعنا وضعف كضعفنا وطبيعة بشرية كطبيعتنا .. لهم نفس المشاعر والآمال والأشواق، يذكر تعالى سلامه عليهم في العالمين إلى يوم القيامة .. يلقي عليهم سلامه جملة: ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾.

ويلقيه على بعضهم اسمًا اسمًا، كما في سورة الصافات: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴾ [الصافات: ٧٨-٨٢].

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الصافات: ١٠٨-١١١].

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الصافات: ١١٩-١٢٢].

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الصافات: ١٢٩-١٣٢].

يقول النسفي: «﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴾ من الأمم هذه الكلمة وهي: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ يعني: يسلمون عليه تسليمًا ويدعون له وهو الكلام المحكي كقولك قرأت سورة أنزلناها (في العالمين) أي ثبت هذه التحية فيهم جميعًا ولا يخلو أحد منها كأنه قيل: ثبت الله التسليم على نوح وأدامه في الملائكة والثقلين يسلمون عليه عن آخرهم: ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾، علل مجازاته بتلك التكرمة السنية بأنه كان محسنًا: ﴿ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾، ثم علل كونه محسنًا بأنه كان عبدًا مؤمنًا ليريك جلالة محل الإيمان وأنه القصارى من صفات المدح والتعظيم»[1].

أشخاص عاشوا على الأرض بدوافع بشرية وحاجات بشرية وضعف بشري.

---

(١) تفسير النسفي، جـ ٤، ص ٢٣.

كذلك لا تكاد تصدق عِظَم هذا المديح لهؤلاء الكرام، مديح يمدحهم الله به عن علمه بحقيقتهم، يمدح ظاهرهم وباطنهم، لا كمن يمدح ظاهرًا قد يكون الباطن بخلافه أو أقل منه، فانظر إلى مثل هذا المدح لسليمان عليه السلام: ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ٣٠]، ومثله لأيوب عليه السلام: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ٤٤].

هكذا يقول الله تعالى لعبد عاش مثلنا بنفس طبيعتنا لم يخرج عنها يقول فيه: ﴿ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ﴾.

وانظر إلى حبه لهم ووعده إياهم بأشخاصهم يقول الله تعالى في شأن داود: ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ [ص: ٢٥]، ومثلها لسليمان: ﴿ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ [ص: ٣٩-٤٠]، والزلفى هي القرب، وانظر لهذا الثناء العظيم: ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى ﴾ [ص: ٤٥]، يعني: القوة في العبادة، ﴿ وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ يعني: العلم واليقين والبصيرة النافذة بهما، ﴿ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴾ [ص: ٤٦ - ٤٨].

وقال تعالى عن موسى: ﴿ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾ [ص: ٦٩].

* * *

شخصيات وصلت للقمة بحيث صار واقعها آية من الآيات يحتج الله سبحانه وتعالى بها على المشركين .. فيعدها آية وحجة، فقد بلغ مطابقة قوله ﷺ لعمله وشيَمه وصفاته بحيث صار واقعه ﷺ آية لمن ينظر إليه ، آية يُستدل بها على النبوة، وهذا ما تضمنه قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ [يونس: ٤٣].

يقول الحافظ ابن كثير: «أي ينظرون إليك وإلى ما أعطاك الله من التؤدة والسمت الحسن والخُلُق العظيم والدلالة الظاهرة على نبوتك لأولي البصائر والنُهَى، وهؤلاء ينظرون كما ينظر غيرهم ولا يحصل لهم من الهداية شيء كما يحصل لغيرهم بل المؤمنون ينظرون إليك بعين الوقار وهؤلاء الكفار ينظرون إليك بعين الاحتقار»(١).

* * *

شخصيات يغضب الله تعالى لهم وينتصر لأجلهم مصداقًا لقوله: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾ [غافر: ٥١]، ولقوله تعالى: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم: ٤٧]، ولقوله تعالى في الحديث القدسي: «إني لأثأر لأوليائي كما يثأر الليث الحرب» أي: آخذ ثأرهم ممن عاداهم كما يأخذ الليث الحرب ثأره(٢).

فانظر إلى دعوة رجل يتغير من أجلها الكون: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ

(١) تفسير ابن كثير، جـ ٢، ص ٥٥٠.
(٢) مجموع الفتاوى، جـ ١١، ص ١٦٠.

كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر: ١٠ - ١٧].

لقد تغيرت الحياة من أجل هذا الرجل الكريم مع اشتداد غضبه تعالى على أعدائه .. فإلى أي مدى كان حبه تعالى لهذه الشخصية البشرية الكريمة ؟!.

وانظر إلى هذه الكلمة التي قالتها مدين في شأن شعيب عليه السلام: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾، ولم يترك سبحانه وتعالى لهم هذه الكلمة بل أعلن للعالمين ولهم أنها كلمة كاذبة كذَّبها الله تعالى، وأن شعيبًا والمؤمنين معه لم يخسروا، وأن اتباع شعيب ليس خسرانًا بل مخالفته هي الخسران، وأن أعداءه هم الخاسرون، وأعلن هذا إلى يوم الدين يقرؤه الخلق دائمًا حتى يلقون الله تعالى، فذكر تعالى إهلاكهم فقال: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾، ثم ذكر من هو الخاسر فقال رادًا على كلمتهم: ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٩٠ - ٩٢].

بل أكثر من هذا أنه تعالى ذكر تنوع عذاب مدين من الصيحة إلى الرجفة إلى عذاب يوم الظلة وكان هذا ردًا على مواقفهم المختلفة من نبيه عليه السلام، يقول الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ في كلام نفيس : «يخبر تعالى عن شدة كفرهم وتمردهم وعتوهم وما هم فيه من الضلال وما جبلت عليه قلوبهم من المخالفة للحق ولهذا أقسموا وقالوا:﴿ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾، فلهذا عقبه بقوله: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾، أخبر تعالى هنا أنهم أخذتهم الرجفة وذلك كما أرجفوا شعيبًا وأصحابه وتوعدهم بالجلاء كما أخبر عنهم في سورة هود فقال: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾، والمناسبة هناك والله أعلم أنهم لما تهكموا به في قولهم: ﴿ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ ..﴾ الآية، فجاءت الصيحة فأسكتتهم، وقال تعالى إخبارًا عنهم في سورة الشعراء: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾، وما ذاك إلا لأنهم قالوا له في سياق القصة: ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ الآية.فأخبر أنه أصابهم عذاب يوم الظلة وقد اجتمع عليهم ذلك كله: ﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ ﴾، وهي سحابة أظلتهم فيها شرر من نار ولهب ووهج عظيم ثم جاءتهم صيحة من السماء ورجفة من الأرض شديدة من أسفل منهم فزهقت الأرواح وفاضت النفوس وخمدت الأجسام: ﴿ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾»[1].

وانظر الى ما قاله قوم نوح له عيه السلام: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأعراف: ٦٠]، وكأنهم يرون!! فيرد ربنا تعالى عليهم بعد هلاكهم ليقرأ الخلق جميعًا هذا الرد الى يوم القيامة ﴿ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٦٤]، وهذا الرد صريح أنهم لا يرون شيئًا!.

---

(١) تفسير ابن كثير، جـ ٢، ص ٣١٠.

هؤلاء الكرام إنما ذُكروا عمومًا للتأسي. لكن هذا التأسي كيف سيحدث إن لم يكن هناك معايشة لهم بحيث يحدث احتكاك فتنطبع نفوسنا بهم؟.

هذا هو الذي نريد استعراضه هنا.

إننا نحتاج إلى معايشة تصل لدرجة الاحتكاك لتنطبع نفوسنا بهم .. وقد يتعجب البعض كيف يحدث الاحتكاك من خلال آيات قصيرة؟.

لكن لابد أن نعلم أنه بالإضافة إلى عظمة كلام رب العالمين وخاصية القرآن في أن الكلمة والجملة تحوي معانٍ كثيرة وقدرة على التصوير الحي كأنك تعيش الكلمة يقولها الشخص بقسماته ونبراته ..

بالإضافة إلى هذا فإن الفارق الكبير في القدرة على الاحتكاك بالأنبياء وغيرهم هو أن تعلم العمق الذي كان وراء الكلمة والعمق وراء الموقف، وهذه هي النقطة الفارقة في الأمر.

إن الكلمة أو الموقف الذي يذكره القرآن لن تفهم قيمته ولن تتأسى به وتتأثر كذلك إلا إذا علمت أن وراء الكلمة والموقف والعمل بُعد وعمق هو الذي أنتج هذا، وهو الذي يجب أن تبحث عنه؛ فالأسوة إنما تكون بظاهر الحال وباطنه من المعاني التي تدفع لهذه المواقف والأعمال.

ولهذا فللعلماء هنا مأخذان:

الأول: أن يتأسى بالظاهر ويحاكيه حتى يتأثر باطنه ويتجاوب مع هذا المستوى.

الثاني: هو التأثر بالمعاني وبالمآخذ حتى يتجاوب الظاهر مع هذه الأعمال العظيمة[1].

وعلى كلٍ فالمهم هو معرفة أن المأخذ في موضوع التأسي ليس بظواهر فقط من الأعمال أو الأقوال، وسواء أخذ العبد هذا المأخذ أو ذاك .. أو أخذ هذا في بعض الأحوال والآخر في أحوال أخرى .. فالأمر حسب ما تيسر للعبد لكن المهم أن لا يغيب عنك عمق الأمور، سواء:

العمق الشخصي لتعرف شخصيته وكيف رباها ونمّاها وكيف نطق بالكلمة أو اتخذ موقفًا ما فتعرف أن له أبعادًا شخصية، وأن عليك بذْل هذا الجهد لتكون جاهزًا في المواقف.

والعمق الإيماني وأبعاده من التربية وتركيم التعبد والإحسان، والتعرّف على الله، وتربية النفس ومرانها وتعويدها على المعالي، وإبائها عن النزول عن القمم.

هذه هي النقطة الفيصل في الأمر للوصول إلى هذا الهدف.

* * *

تُعرض شخصيات للتأسي، وسبيله المعايشة، ولن يتحقق إلا بالاحتكاك المباشر بهم من خلال كلمات رب العالمين سبحانه وتعالى، وأن تعرف أن هذه الكلمات لا تأتي من فراغ بل وراءها من التربية والجهد وسوابق الأعمال، ومأخذ خاص للحياة يتخذه العبد، وهدف يتغياه الشخص، فكما يتغيا الكثير تملك الأموال أو تبوء منصب أو كرسي معين، يتغيا المؤمن أن يكون قريبًا من شخصيات هذا الكتاب الكريم هدفًا لحياته.

---

(١) يراجع مدارج السالكين.

كذلك لابد من بيان أنه مع الاصطفاء الإلهي لهؤلاء واختيارهم فلم ينزل هذا الاجتباء لهم وهم منصرفون أو أنهم لم يكن لهم جهدهم للوصول، سواء قبل الاصطفاء وبعده كما في شأن يوسف وموسى، فقال تعالى في شأن يوسف: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٢٢]، وقال جل جلاله في شأن موسى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [القصص: ١٤]، أو بعده كما قال في شأن لوط: ﴿ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ﴾ [العنكبوت: ٢٦].

فكما هناك اصطفاء واجتباء رباني فهناك أيضًا من الجهد ومن العمل ما كانوا به أهلاً لهذا، فأرجو أن لا يُهمل هذا المعنى، لأن الكثير يُحيل رفعة المستوى في مثل هذه المواطن للاختيار الإلهي ـ وهو حق وحقيقة ـ لكن كأنما نزل على غير سبب حكيم ، ولكن قد ذكر سبحانه أيضا جزءً آخر من الحقيقة هيأهم بها لتلقى اختياره واصطفائه ، فذكر تعالى أنهم كانوا محسنين – كما ذكرنا عن موسى ويوسف عليهما السلام- وأن هذا الإحسان كان تأهيلاً لقلوبهم أن تتهيأ لتلقي هذه النعم وليكونوا أهلاً لها: لتلقيها، وللقيام بها، وللحفاظ عليها، والارتفاع بها، وأن الاختيار الإلهى اختيار حكيم ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ﴾[1]، والله تعالى يسبب هذه الأسباب تهيئة لاصطفائه تعالى، هذا مع عون رب العالمين المبذول لمن توكل عليه من خلقه جميعًا.

وإن لم نفهم هذا فقد نغلق باب التأسي تمامًا، بينما ربنا سبحانه قد أمرنا بالتأسي برسول الله وهو أعلى مستوى بشرى وأعظم الخلق تعبدًا لله تعالى، والعبد يُقسَم له بحسب جهده وبحسب صدقه وبحسب عون الله له من خلال هذا التأسي ما يصير به أعجوبة للخلق في كل زمان وفى كل بيئة حتى يعجب الخلق أن هناك من غير الأنبياء من يمكن أن يصل لهذا المستوى، وهذا مع حفظ مقامات الأنبياء الكرام، وأنه لا يكون أحد يساويهم لا في الدنيا ولا في الآخرة، فالأنبياء خير من جميع الأولياء، لكن المقصود فقط هو فتح باب التأسي وبيان مأخذه.

* * *

وقبل الشروع في بيان أمثلة توضيحية لهذا القصد .. نبين أن الشخصيات المؤمنة التي جاءت في القرآن ثلاثة أضرب:

ـ الأنبياء، وسيدهم وخاتمهم محمد ﷺ.

ـ شخصيات مؤمنة لها مواقف عظيمة، وخيرهم الصحابة.

ـ أمثلة لنساء مؤمنات وأزواج رسوله الطيبات الطاهرات.

* * *

(١) وهذا الاختيار اختيار حكيم يختار الله تعالى أفضل الخلق؛ فقد روى مسلم في صحيحه: «عن أبي عمار شداد أنه سمع واثلة بن الأسقع يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشا من كنانة واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم». صحيح مسلم جـ٤، ص ١٧٨٢، رقم ٢٢٧٦.

أولاً: استعراض هذا المقصد مع الأنبياء

هؤلاء هم صفوة خلق الله، وهؤلاء هم الذين ذكر الله تعالى سلامه عليهم وأبقاه عليهم دائمًا في العالمين، وإنه لَلشرف، وأثنى عليهم أن لهم القرب عنده (الزلفى) وأنهم الأخيار وأنهم أصحاب القوة في التعبد كما أنهم أصحاب اليقين والبصيرة، وهذا الثناء عليهم ـ مع الاصطفاء ـ لأنه كان لهم من العمل والجهد للوصول لهذا ما استحقوا ثناء الله تعالى عليهم.

والاحتكاك بهم يورثك: رؤية واضحة .. وعمق .. وشخصية ثابتة ..وعزم راسخ .. وغيرها كثير.

ولننظر نظرات عابرة تليق بطبيعة العرض العام لهذا الموضوع في كتاب الله تعالى، مع ملاحظة أننا لم نقصد الى الترتيب لا حسب السور ولا حسب التفاضل ..

* * *

من أبرز الأنبياء الذين أفردت لقصتهم سورة كاملة يوسف عليه السلام ولننظر في هذه الحقائق من خلال بعض المواقف:

١ - لقد فارق أباه صغيرًا، لكن هناك من المفاهيم والمعاني والقيم التي شربها من صغره ما أخذها بوعاء صافي نظيف وحافظ عليها ونمّاها ولم ينس، وهذا لتقف أمام طبيعة هذا البيت الصادق في تدينه والتزامه بهذا الدين الذي يتشرب فيه الصغير حتى في هذا السن من القيم والمعاني والعلم والمعرفة بأصل هذا الدين ما لا ينساه إن انفرد وحده وتغيرت به الظروف والأحوال، حتى لو صار بين قوم على غير هذا الدين ووسط أوضاع منحرفة نتجت عن هذا الشرك .. أوضاع تصير فيها الشهوات مع الترف هو الشغل الشاغل ومجال التنافس بين أهله، هذا ناهيك عن النسيان والانصراف عن رب العالمين وحقوقه، فمع كل هذا لا ينسى يوسف إن نسى الآخرون، ولا ينحرف كما انحرفوا ولا يتخلى عن دينه كما يفعلون، ولا ننسى حفظ الله تعالى له وعصمته له، لكنه تعالى يقدر الأسباب، فهذا الحفظ وهذه العصمة تأتي مع قلب متوجه لله لا ينسى ما رضعه في صغره.

٢ - يَروعُ القارئَ كثيرًا موقفه وصبره عن الشهوة الحرام وأنه نجح في هذا الاختبار .. لكن يفوت الكثير لماذا نجح. وهذا طبعًا مع العصمة ولكن لا يحال عليها فقط على سبيل الاختصار وإلا لما كانت هناك فرصة للتأسي بهم ولأعتذر الخلق بأنه معصوم، وكما قلنا فالله تعالى يقدر الأمور بأسبابها، وهذا من حكمته جل وعلا، وقد ذكر تعالى هذا السبب الذي هو ـ مع الموقف ـ محل الأسوة.

هناك عمق واضح قبل هذا الموقف اكتسبه يوسف وهو واضح تمامًا في قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٢٢].

وهذه الآية جُعلت مقدمة للموقف للدلالة على أن ما تعلَّمه وتلقاه في صباه في بيت النبوة حفظه في وعاء نظيف وفطرة مستقيمة، وأنه لم يكتف بهذا بل أنه بذل جهده لبلوغ أعلى مستوى وهو **الإحسان**:

ـ **الإحسان بشقه العلمي**: بصيرة تصل لدرجة اليقين والرؤية، كأنه يرى من خلال يقينه وعلمه بقلبه كما يرى المبصر بعينه.

وانظر إلى إشارات ابن القيم في قوله تعالى: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [سبأ: ٦]، لم يقل: ﴿ **ويعلم الذين أوتوا العلم** ﴾ ، بل جعل العلم لهم رؤية يرون من خلاله، كذلك العلم المذكور في صفات أولى الألباب في سورة الرعد: ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الرعد: ١٩]، جعل مقابلهم: ﴿ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ﴾، للدلالة على أن صاحب العلم يرى من خلاله.

هذا الإحسان بذل يوسف الجهد للوصول إليه في رؤيته ولا يصل أحد إليه إلا بالجهد.

ـ **والإحسان بشقه العملي التعبدي**: بحوْز المعالي وفي الاستباق في الخيرات بعد استيفاء الأوامر، والحساسية من المحرم وشبهاته وما يقارب منه.

ـ **والإحسان مع الخلق** بعمل الذي هو أحسن؛ كلمةً وعملاً وعطاءً وصفحًا وظنًا .. وغيره.

كان هذا هو الجهد المبذول في مرحلة شبيبته وهذا هو الذي أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾.

فلما كان الموقف الذي فيه الابتلاء وجد عنده من الرصيد ومن المخزون الذي جهَد فيه، مع توكله على ربه وافتقاره إليه ما لم يقع به في الفتنة، ورأى واعظ الله في قلبه الذي دفع خطرة الهم البشري الذي جاء بعد الموقف الصلب ورده إلى الموقف الصلب بل والقرار، بل والقرار النهائي؛ شراء ما عند الله وبغض ما يبغضه وإيثار مراد الله على مراد النفس بل لم يجد في نفسه إلا إرادة مراد الله بعد طرد الخاطر العابر.

لو أن رجلاً قليل الديانة ضعيف المراقبة معتاد انتهاك الحرمة وهتك ستر ما بينه وبين الحرام فهل ينجح في موقف يُخيَّر فيه بين داعي ربه وداعي نفسه؟ فلنراجع نفوسنا إذن.

هنا تكون المعايشة وهنا يكون الاحتكاك فتحدث الأسوة ومن ثَمَّ التربية.

٣- لم نجد يوسف عليه السلام منشغلاً بالانتقام مملوءً بالحقد يحلم بيوم الانتقام من إخوته. ولو كان كذلك لكان بثُّ شكواه أعلى من طرح عقيدته على صاحبي السجن، وقلبٌ مملوء حقدًا كيف يكون أهلاً للرسالة التي هي بذْل الخير للخلق كلهم وبلا مقابل بل مع توطين النفس على تحمل الأذى من الخلق ابتغاءً للخير لهم: ﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ ﴾؟ [إبراهيم: ١٢].

قد يكون موجوعًا أو متألمًا لكنه لم يعْمَ قلبه بحقد، ولم يقصر همه للانتقام، ولما جاءته الفرصة لم ينتقم ولو كان كذلك لسارع بالانتقام عند أول رؤية من أول يوم وفي أول موقف .. حتى شهدوا له بالإحسان، بل خاطبوه باسمه: ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٧٨]، لما تحققوه فيه.

من أين جاءت طهارة القلب هذه؟.

هناك قاعدة: أن القلب الفارغ من الخير ينزل فيه الشر، وكما يقول ابن القيم أن الشر يأتي من انعدام الخير[1]؛ فلابد أن يكون قد ملأه باهتمامات وانشغالات ومعانٍ علمًا ورؤية وبصيرة، وعملاً وهمًا وقصدًا، وإرادة خيّرة ربانية تجعله أهلاً للرسالة وأهلاً للصبر عند القدرة كما صبر عند العجز. وللصبر على الألم في السجن كما صبر على الشهوة المحرمة في الحرية.

هنا تأتي المعايشة ويأتي الاحتكاك ويأتي البحث عن هذه المعاني التي رباها في نفسه لنربيها في نفوسنا وننشغل بها ونقلق كثيرًا عند افتقادها.

٤- تقف كثيرًا وتُعْجَب بقوة الصبر التي تميز بها: صبر على تعبداته وصبر على معتقده بين مخالفين وواقع مضطرب وممتلئ بما يغمر في النسيان والانشغال كما قال تعالى: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ [المؤمنون: ٦٣]، زيادة على الصبر على ألم فقدان الأهل، وألم الأخوّة المفقودة والشعور بأن هناك من يريد قتله، وصبر على شهوة محرمة دواعيها البشرية أكثر من موانعها، وصبر على سجن وقيد، وظلم عقب ظلم سابق، وتهمته في أعز ما يملك: (عِرضه) وفي أكثر ما يهتم به: (علاقته بربه) ثم صبر على رفقاء لا يعرفون الله ولا يؤمنون به ثم صبر على القوة والنفوذ والملك ورؤية من ظلمه ضعيفًا ذليلاً مترددًا على الباب يقول: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾ [يوسف: ٨٨]، فيحسن إليهم ويعفو ويصفح بل ويلتمس لهم العذر!! ثم صبر على تجمع الرسالة والملك والأهل والفضل فيهرب ليسأل: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]، وهنا الزهد الحق.

من أين جاء بكل هذا؟ فلننظر إذن مليًا.

٥- ومن أين جاء بقوة الصفح هذه.. جاء مَن ظَلَمَه منكسرين محتاجين فيذكّرهم ويلتمس لهم العذر مع التذكير: ﴿إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾، ثم بكلمة يمسح آلام سنين طوال: ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، بل وبلا عتاب: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ [يوسف: ٩٢]، لا لوم لا عتاب .. تبارك من ربّى مثل هذه الشخصية الكريمة.

من أين جاء بكل هذا الصبر؟ ومن أين جاء بكل هذا الصفح؟.

صبر أُعجِب به النبي ﷺ حتى قال فيما رواه ابن ماجة عن أبي هريرة قال: قال: رسول الله ﷺ: «نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال رب أرني كيف تحي الموتى. قال أولم تؤمن؟ قال

(١) يقول رحمه الله: « فاعلم أن الشر كله يرجع إلى العدم أعني عدم الخير وأسبابه المفضية إليه» مدارج السالكين، جـ٢، ص١٩٩.

بلى. ولكن ليطمئن قلبي. ويرحم الله لوطًا لقد كان يأوي إلى ركن شديد. ولو لبثتُ في السجن طول ما لبث يوسف لأجبت الداعي»[١]، وهذا من تواضعه ﷺ[٢].

هذا ما يجب أن نبحث عنه، وعندما نسمع مواقفه نعايشها ونعلم ما وراءها من شخصية. وهذه الشخصية كيف رباها ونمّاها ـ مع عصمة الله واختياره ـ هذا لابد من تنميته والاستعانة بالله فيه (وما صبرك إلا بالله) نحن طاقتنا لا تقوى على هذا لكن هناك حول الله وقوته والاستعانة به في مران النفس وتعويدها أن تصبر، وقد أعلن يوسف عليه السلام مناط الفوز ومناط هذه التربية في نهاية الأمر: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠]، والتقوى هي: فعل المأمور، والصبر هو: الصبر على المقدور، ولا يمكن التقوى إلا بالصبر، إنها قاعدة كل مظلوم وكل من يريد الوصول إلى ربه، إنها قاعدة ذهبية.

هنا المعايشة والاحتكاك والتربية.

* * *

يَرُوعُك في نوح صبرُه وطول مدة دعوته وإنذاره يُرَهِّب ثم يُرَغِّب، يُسِر ثم يُعلِن، يُلح، يدعوهم فرادى وجماعات .. حتى يروى أن الرجل كان يقول لابنه: (حدثني أبي عن جدي أن لا أسمع لهذا الرجل). هذا محل أسوة.

ما حجم وطبيعة الرباط الذى كان يربطه بالله تعالى طوال هذه الفترة؟ وكيف بقيت الجذوة مشتعلة في قلبه للدعوة؟ كيف لم يفتر؟ أي مَعين كان يستقي منه .. أي علاقة ندية مع ربه كانت تُحَلِّي له مرارة ما يلاقي ..

كيف استعذب السنين الطوال عطاءً لله؟ أي أمل كان يحدوه .. وأي خوف من التقصير في البلاغ كان يؤرقه فلا يفتر؟ أي تعظيم لربه ولأمر ربه كان يهابه قلبه فلا يقصّر ..؟.

ما حجم لقاء ربه في قلبه؟ وما حجم الجنة؟ وما حجم رضوان الله الذي يرجوه عندما يلاقيه كان يهون عليه السنين بل مئات السنين وهو داعٍ لربه لا يفتر؟.

هنا المعايشة والاحتكاك لمن أراد التربية؟! التأسي به في الصبر، والتأسي به في المعاني التي كانت وراء هذا الصبر العظيم والرباط المستمر.

* * *

---

(١) سنن ابن ماجه جـ ٢، ص ١٣٣٥، قال الشيخ الألباني: صحيح.
«لأجبت الداعي»: المقصود مدح يوسف بأنه بلغ من الصبر والتأني غايته.
فإنه لما جاءه رسول الملك ليخرج من السجن بعد تأويله رؤيا الملك لم يبادر بالخروج ولم يُجب الداعي الذي دعاه لمقابلة الملك، بل طلب البحث أولا عن حقيقة التهمة الظالمة التي اتُهم بها لتظهر براءته قبل خروجه، فمن تواضع رسول الله ﷺ أن قال أنه لو كان مكان يوسف لتعجل إجابة الداعي قبل ظهور البراءة، وهذا من تواضعه عليه الصلاة والسلام ولإظهار ميزة يوسف ومدحه بهذا الصبر والتأني.

(٢) وصفحٌ لم يرض أن ينزل عنه رسول الله ﷺ لما جاءه ابن عمه أبو سفيان بن الحارث وابن عمته عبد الله بن أمية بن المغيرة وكانا من أشد أعدائه وأشد الخلق تأليبًا عليه وتأخر رسول الله في الصفح عنهم حتى نصحتهما أم سلمة أن يقولا له ما قال أخوة يوسف: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾، فإنه لم يرض بأقل من جواب يوسف وقد كان، ﷺ..

تقف كثيرًا أمام هذه الشخصية الفريدة .. شخصية إبراهيم عليه السلام:

١ - وضوح رؤية تام، وقوة في بصيرته بأن يرى الأمور على حقيقتها وقوة وضوح تمنعه أن يُخدع، ولم يقف عند هذا الحد بل قوة في المبادأة والعمل والمواجهة.

عندما يقول: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام: ٧٤]، بكل هذا الوضوح: يذكر صفة ﴿ أَصْنَامًا ﴾ قبل أن يذكر ﴿ ءَالِهَةً ﴾ ليُظهِر هذه الحقيقة، بل يصفهم بقوة وثبات: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ أي قوة هذه؟.

قوة في الوضوح وقوة في العمل والمواجهة.

وانظر في موضع آخر يقول تعالى عنه: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ٥١ - ٥٦]، يذكر صفة ﴿ ٱلتَّمَاثِيلُ ﴾ أولاً لأنها الحقيقة، ثم وصف ما يفعلون من الشرك المفترَى.

وفي موضع ثالث يقول تعالى حاكيًا عنه ما قاله لقومه: ﴿ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الصافات: ٨٤ - ٨٧]، أكذبًا وافتراءً واختلاقًا تتخذون آلهة، ويذكر الاختلاق والافتراء والكذب أولاً لبيان حقيقة الحال التي يراها.

وأما المبادأة: فإنه نسف هذا الضلال من أساسه وكسر أصنامهم وأهانها ودفعهم لمواجهته، ثم لما واجهوه عرّاهم حتى بان عوارهم أمامهم: ﴿ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، ﴿ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٦٤ - ٦٧].

أي شخصية هذه؟ هذا الموقف وراءه بُعد لهذا العبد العظيم يجب البحث عنه والتأثر به .. فتربية الوضوح والبصيرة، وتربية الموقف والعمل والمبادأة، وعدم الغوغائية وعدم السلبية وعدم الانسياق وراء كل ناعق أو راقص أو سفيه أو تافه كما في أيامنا .. إنه لم يسمح لأحد أن يستخف بعقله .. هذا نحتاجه اليوم كثيرًا.

لم يتلاعب بواقعه بل رآه كما هو .. ثم فَزَّعهم حتى دفعهم لمواجهته مواجهة غير مسبوقة فنصره الله وأعلى سعيه، وخذلهم ورد كلمتهم.

هذا يحتاج إلى معايشة لتتغير شخصياتنا التي هي نتاج الأوضاع الذليلة والمترعة بالشهوات.

٢- التسليم إلى آخر حد، حتى ذبْح ابنه .. والتسليم قبلها بترك الأهل بوادٍ غير ذي زرع.

٣- التوكل، الثقة في الله، واليقين به، وحسن الظن فيه، والتفويض إليه، والاعتماد عليه اعتمادًا كاملاً .. كان هذا حاله عندما أُلقِي في النار .. وعندما هاجر .. وعندما ترك أهله بالحجاز .. وحين هم بذبح ولده. وهكذا دائمًا ..

لكن هل كان هذا وليد لحظة؟.

إن التوكل قوة ضخمة يقطع به الإنسان في لحظات ما يقطعه غيره في سنوات، ويقوى به على ما لا يقوى عليه غيره في التعبد وفي تغيير الحال وفي المواقف.

فالتوكل به يتعبد الإنسان وبه يغير نفسه، وهو يحتاج إلى مران وتدريب قلبي حتى يخلص اعتماده على الله تعالى ـ مع الأخذ بالسبب ـ وهو ما يعبر عنه المسلم بقوله "لا حول ولا قوة إلا بالله".

* * *

يَرُوعك في يعقوب الصبرُ بل أضاف إليه الصبر الجميل .. بل أضاف إليه حسن الظن بالله بل أضاف إليه الثقة فيه واليقين .. وانتظار الفرَج ..

يفقد ابنه فيكون ﴿ صَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾، ثم يفقد الآخر، والثالث منقطع لا يريد الرجوع .. واحد مفقود والآخر مسترق لسَنة والثالث لن يعود، ويبشر بهذه بعد تلك فيزيد البلاء فيزيد الصبر ويضيف إليه تعبدًا آخر .. في الأول قال: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾، ولما زاد البلاء قال: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ﴾ [يوسف: ٨٣]، ثم زاد وجع قلبه حتى ابيضت عيناه فزاد عبودية ثالثة: يتلمس فرج الله وينتظره محسنًا للظن بربه واثقًا فيه.

ـ لا ينتظر كشيخ كبير مكلوم ليكون محل شفقة ! ـ بل يطلب المبادأة: ﴿ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾، ولا يكتفي حتى يكون هو الناصح والموجِه والموصِي بحسن التعبد لله وأن تكون قلوبهم على رجاء من رب العالمين أثناء بحثهم عن أخيهم: ﴿ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [يوسف: ٨٧].

الصبر والصبر الجميل وحسن الظن والثقة واليقين وانتظار الفرج كل هذا يحتاج لمران وتعود واستهداف لتتربى عليه ..

زيادة العبودية مع زيادة البلاء .. هذه نقطة فارقة .. كيف نكون هكذا؟.

ابحث في هذا وانظر فيها دائمًا كلما قرأت كلمات يعقوب عليه السلام ،والتى تحتاج أن تقرأها كثيرا ومن أجل هذا مطلوب أن تقرأ القرآن كثيرا لتعايش هؤلاء الكرام.

* * *

إعجاز وآيات مع بعض الأنبياء، لم يحملوا معجزة مادية بل حملوا معجزتهم في صدورهم .. في يقينهم بالله وبيّنتهم في دعوتهم.

هود عليه السلام يقول ابن القيم وابن أبي العز الحنفي شارح الطحاوية أنه من الأنبياء الذين لم يكن لهم معجزات مادية قوية لكن معجزته كانت واضحة جدًا في بيّنته وإيمانه:

﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود: ٥٣ - ٥٦].

يقول ابن القيم في كلام هام ونفيس: «**حتى إن من أخفى آيات الرسل آيات هود عليه السلام حتى قال له قومه: يا هود ما جئتنا ببينة، ومع هذا فبينته من أظهر البينات وقد أشار إليها بقوله:** ﴿ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾، فهذا من أعظم الآيات أن رجلاً واحدًا يخاطب أمة عظيمة بهذا الخطاب غير جزع ولا فزع ولا خوار بل واثق مما قاله جازم به قد أشهد الله أولاً على براءته من دينهم ومما هم عليه إشهاد واثق به معتمد عليه معلم لقومه أنه وليه وناصره وأنه غير مسلطهم عليه.

ثم أشهدهم إشهاد مجاهر لهم بالمخالفة أنه بريء من دينهم وآلهتهم التي يوالون عليها ويعادون ويبذلون دماءهم وأموالهم في نصرتها.

ثم أكد عليهم ذلك بالاستهانة بهم واحتقارهم وازدرائهم وأنهم لو يجتمعون كلهم على كيده وشفاء غيظهم منه ثم يعاجلونه ولا يمهلونه، وفي ضمن ذلك أنهم أضعف وأعجز وأقل من ذلك وأنكم لو رُمْتُموه لانقلبتم بغيظكم مكبوتين مخذولين.

ثم قرر دعوته أحسن تقرير وبين أن ربه تعالى وربهم الذي نواصيهم بيده هو وليه ووكيله القائم بنصره وتأييده وأنه على صراط مستقيم فلا يخذل من توكل عليه وآمن به ولا يشمت به أعداءه ولا يكون معهم عليه فإن صراطه المستقيم الذي هو عليه في قوله وفعله يمنع ذلك ويأباه.

وتحت هذا الخطاب أن من صراطه المستقيم أن ينتقم ممن خرج عنه وعمل بخلافه وينزل به بأسه فإن الصراط المستقيم هو العدل الذي عليه الرب تعالى، ومنه انتقامه من أهل الشرك والإجرام ونصره أولياءه ورسله على أعدائهم، وأنه يذهب بهم ويستخلف قومًا غيرهم ولا يضره ذلك شيئًا، وأنه القائم سبحانه على كل شيء حفظًا ورعايةً وتدبيرًا وإحصاءً.

فأي آية وبرهان ودليل أحسن من آيات الأنبياء وبراهينهم وأدلتهم وهي شهادة من الله سبحانه لهم بينها لعباده غاية البيان وأظهرها لهم غاية الإظهار بقوله وفعله وفي الصحيح عنه أنه قال ﷺ: «ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إليّ؛ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة».

ومن أسمائه[١] تعالى (المؤمن) وهو في أحد التفسيرين المصدِّق الذي يصدق الصادقين بما يقيم لهم من شواهد صدقهم فهو الذي صدق رسله وأنبياءه فيما بلغوا عنه، وشهد لهم بأنهم صادقون بالدلائل التي دل بها على صدقهم قضاءً وخلقًا، فإنه سبحانه أخبر وخبره الصدق وقوله الحق أنه لابد أن يُرى العباد من الآيات الأفقية والنفسية ما يبين لهم أن الوحي الذي بلغته رسله حق فقال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾، أي القرآن فإنه هو المتقدم في قوله: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ ﴾، ثم قال: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾، فشهد سبحانه لرسوله بقوله أن ما جاء به حق ووعده أن يُرى العباد من آياته الفعلية الخلقية ما يشهد بذلك أيضًا.

ثم ذكر ما هو أعظم من ذلك وأجل وهو شهادته سبحانه على كل شيء فإن من أسمائه الشهيد الذي لا يغيب عنه شيء ولا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء بل هو مطلع على كل شيء مشاهد له عليم بتفاصيله، وهذا استدلال بأسمائه وصفاته، والأول استدلال بقوله وكلماته، والاستدلال بالآيات الأفقية والنفسية استدلال بأفعاله ومخلوقاته»[٢].

وذكر مثل هذا ابن أبى العز شارح الطحاوية رحمه الله عنه أو عن شيخ الإسلام.

يقول الأستاذ سيد قطب: «ونقف أمام تلك المواجهة الأخيرة من هود لقومه؛ وأمام تلك المفاصلة التي قذف بها في وجوههم في حسم كامل، وفي تحد سافر، وفي استعلاء بالحق الذي معه، وثقة في ربه الذي يجد حقيقته في نفسه بينة: ﴿ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴾.

إن أصحاب الدعوة إلى الله في كل مكان وفي كل زمان في حاجة إلى أن يقفوا طويلاً أمام هذا المشهد الباهر .. رجل واحد، لم يؤمن معه إلا قليل، يواجه أعتى أهل الأرض وأغنى أهل الأرض وأكثر أهل الأرض حضارة مادية في زمانهم، كما جاء عنهم في قول الله تعالى فيهم حكاية عما واجههم به أخوهم هود في السورة الأخرى: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ! ﴾.

---

(١) الكلام متصل لابن القيم رحمه الله.

(٢) مدارج السالكين، جـ ٣، ص ٤٦٤ - ٤٦٦.

فهؤلاء العتاة الجبارون الذين يبطشون بلا رحمة؛ والذين أبطرتهم النعمة؛ والذين يقيمون المصانع [١] يرجون من ورائها الامتداد والخلود! .. هؤلاء هم الذين واجههم هود ـ عليه السلام ـ هذه المواجهة. في شجاعة المؤمن واستعلائه وثقته واطمئنانه؛ وفاصلهم هذه المفاصلة الحاسمة الكاملة ـ وهم قومه ـ وتحداهم أن يكيدوه بلا إمهال. وأن يفعلوا ما في وسعهم فلا يباليهم بحال!.

لقد وقف هود ـ عليه السلام ـ هذه الوقفة الباهرة، بعدما بذل لقومه من النصح ما يملك؛ وبعد أن تودد إليهم وهو يدعوهم غاية التودد .. ثم تبين له عنادهم وإصرارهم على محادة الله وعلى الاستهتار بالوعيد والجرأة على الله ..

لقد وقف هود ـ عليه السلام ـ هذه الوقفة الباهرة لأنه يجد حقيقة ربه في نفسه، فيوقن أن أولئك الجبارين العتاة المتمتعين المتبطرين إنما هم من الدواب! وهو مستيقن أنه ما من دابة إلا وربه آخذ بناصيتها؛ ففيم يحفل إذن بهؤلاء الدواب؟! وإن ربه هو الذي استخلفهم في الأرض، وأعطاهم ما أعطاهم من نعمة ومال وقوة وبنين وقدرة على التصنيع والتعدين! للابتلاء لا لمطلق العطاء. وأن ربه يملك أن يذهب بهم ويستخلف غيرهم إذا شاء، ولا يضرونه شيئًا، ولا يردون له قضاء .. ففيم إذن يهوله شيء مما هم فيه، وربه هو الذي يعطي ويسلب حين يشاء كيف شاء؟ ..

إن أصحاب الدعوة إلى الله لابد أن يجدوا حقيقة ربهم في نفوسهم على هذا النحو حتى يملكوا أن يقفوا بإيمانهم في استعلاء أمام قوى الجاهلية الطاغية من حولهم .. أمام القوة المادية. وقوة الصناعة. وقوة المال. وقوة العلم البشري. وقوة الأنظمة والأجهزة والتجارب والخبرات .. وهم مستيقنون أن ربهم آخذ بناصية كل دابة؛ وأن الناس ـ كل الناس ـ إن هم إلا دواب من الدواب!.

وذات يوم لابد أن يقف أصحاب الدعوة من قومهم موقف المفاصلة الكاملة؛ فإذا القوم الواحد أمتان مختلفتان [٢] .. أمة تدين لله وحده وترفض الدينونة لسواه. وأمة تتخذ من دون الله أربابًا، وتحاد الله!.

ويوم تتم هذه المفاصلة يتحقق وعد الله بالنصر لأوليائه، والتدمير على أعدائه ـ في صورة من الصور التي قد تخطر وقد لا تخطر على البال ـ ففي تاريخ الدعوة إلى الله على مدار التاريخ! لم يفصل الله بين أوليائه وأعدائه إلا بعد أن فاصل أولياؤه أعداءه على أساس العقيدة فاختاروا الله وحده .. وكانوا هم حزب الله الذين لا يعتمدون على غيره والذين لا يجدون لهم ناصرا سواه»[٣] ا.هـ.

---

(١) القصور الضخمة.

(٢) يعني من يرفض الإسلام كهوية وكشريعة عامة لازمة .. من اللادينيين الذين يُسمون أنفسهم تسمية محرفة بـ (العلمانيين)، في مقابل من لا يقبل غير شريعة الله تعالى ولا يرتبط إلا بولاء الإسلام.

(٣) سيد قطب، في ظلال القرآن.

وصنو هذه الآية موقف نوح في سورة يونس: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٧١ - ٧٢].

ولهذا يربط الحافظ ابن كثير كلا هاتين الآيتين ببعضهما، ويفسر إحداهما بالأخرى، فيقول في آية يونس: «يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: أخبرهم واقصص عليهم أي على كفار مكة الذين يكذبونك ويخالفونك ﴿نَبَأَ نُوحٍ﴾ أي: خبره مع قومه الذين كذبوه كيف أهلكهم الله ودمرهم بالغرق أجمعين عن آخرهم ليحذر هؤلاء أن يصيبهم من الهلاك والدمار ما أصاب أولئك ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: عظم عليكم ﴿مَقَامِي﴾ أي: فيكم بين أظهركم ﴿وَتَذْكِيرِي﴾ إياكم ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي: بحججه وبراهينه ﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي: فإني لا أبالي ولا أكف عنكم سواء عظم عليكم أو لا، ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ أي: فاجتمعوا أنتم وشركاؤكم الذين تدعون من دون الله من صنم ووثن ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ أي: لا تجعلوا أمركم عليكم ملتبسًا بل افصلوا حالكم معي فإن كنتم تزعمون أنكم محقون فاقضوا إليّ ﴿وَلَا تُنْظِرُونِ﴾ أي: ولا تؤخروني ساعة واحدة أي مهما قدرتم فافعلوا فإني لا أباليكم ولا أخاف منكم لأنكم لستم على شيء، كما قال هود لقومه: ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾»[1].

كيف نصل لهذه البينة والوضوح وكيف نصل لهذه الثقة ولهذه القوة، ولهذا الموقف؟.

كيف نرى أن كل ما سوى الله دواب مأخوذة من نواصيها بيد الله تعالى فيتحرر القلب من ذل الخوف والرهبة ويتطلع لله فقط خوفًا ورغبة؟.

كيف؟ وهل ذِكْر كلمات هود في القرآن تفتح لنا هذا وتذكرنا به؟ وتلح عليك أن تحتك به وتعايشه وتحاول التأثر بهذا الرجل العظيم؟.

هنا تعايش .. وهنا موضع الأسوة، بل وهنا الهَمّ إن لم نكن على هذا الدرب وإن لم نصل لهذا المستوى العظيم.

ولعل هذا ما دفع امرأة للإنكار على ابن سيرين قراءته الكثيرة وقالت إني في سورة هود منذ ثلاثة أشهر لم أفرغ منها[2].

---

(١) تفسير ابن كثير، جـ ٢، ص ٥٥٩.
(٢) راجع زاد المعاد.

كذلك نفس الثقة واليقين في موقف موسى: ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء: ٦٠ - ٦٢].

يخشى الناس كلهم عندما تنسد أبواب النجاة ومنافذها .. فيبقى إيمانه يقول: ﴿ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾: ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الشعراء: ٦٠ - ٦٣].

وإبراهيم حين ألقي في النار فيكتفي بربه حسبًا كافيًا ووكيلاً يكل إليه أمره مع ثقة ويقين وتفويض إليه جل جلاله (حسبي الله ونعم الوكيل).

ووضوح رائع ويقين أيضًا مع شعيب عليه السلام أن عبادته وطاعته لغير الله تعالى كذب بل افتراء للكذب وباطل ومخالف للحق، وبالتالي فهو لا يستطيع بأي حال التراجع عن هذا الحق الذي يحمله بغض النظر عن حجم وشكل وماهية التهديد الذي يتوعدونه به:

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٨ - ٨٩].

وانظر إلى خير الخلق وهو في الغار عندما يقلق أبو بكر ﷺ أن يراهم المشركون ويخاف على هذا الدين فيقول: لو أن أحدهم نظر تحت قدمه لرآنا فيكون رده الكريم ﷺ: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟»، فتنزل هذه الآيات الكريمة: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٤٠].

وكلها مواقف إشهاد لله تعالى لإظهار الحق، ولا يَقْدُم أحد عليها ولا يثبت إلا أن يكون الله ورضاه والجنة آثر عنده من كل شيء ولو في حال رؤيته للموت وتهديده به.

اليقين الذي لا يهتز إذا شك الجميع ..

والثقة والثبات والاطمئنان الذي يتمسك به إذا اضطرب الجميع حتى حين يوقن الصديق والعدو بالهلاك. ويبقى هناك اليقين بالله والعلم به مع حسن الظن به والتوكل عليه .. نحتاج إلى أن ننفق أعمارنا في الوصول لهذه المعاني وتمثُّل هذا الإيمان.

* * *

لم يدر أيوب عليه السلام أن صبره لن يُثنَى عليه به فقط بل أن الله تعالى سيجعل له هذا إلى يوم القيامة ينطق به الملايين إثر الملايين مئات السنين: ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ ۘ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [الصافات: ٤١ - ٤٤].

ولم يكن يدري أنه سيكون أنموذجًا للبشرية إلى يوم القيامة .. لم يدر أيوب عليه السلام لكنه امتثل واستعان بربه في صبره.

فمثل هذا الصبر وتوطين النفس عليه والمران عليه والاستعانة بالله تعالى فيه يحتاجه المؤمن.

ومن يدري ماذا ستكون لأهلك .. لولدك .. لمن بعدك .. إن الموقف لن يموت بل يبقى فالعمل لك .. والأثر لك أيضًا ولا يحصر الأثر إلا رب العالمين، وقد يبارك فيه كما رأينا مع أيوب .. طبعًا مع حفظ مقامات الأنبياء.

وانظر إلى هضم نفسه .. يرى بلاءه لتقصير بسبب الشيطان فابتلي بهذا:

﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾، فلم يضجر، ولم يعاتب ربه، ولم يَلُم الأقدار؛ بل عاد بالتقصير على نفسه.

* * *

عندما تقرأ إرسال موسى تعلم قوته وشخصيته وهو يواجه فرعون .. فأي شخصية هذه التي اختارها الله تعالى لأظلم أهل الأرض وأشد البشر كفرًا وجحودًا وكبرًا؟.

﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴾ [الشعراء: ١٠ - ١١].

حتى أنه احتاج لآيات كبرى قبل التكليف بهذه المهمة: ﴿ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ [طه: ٢٣ - ٢٤].

قف هنا وتدبر.

فهي شخصية عظيمة وثقيلة .. والاستقواء بالله والتوكل عليه والافتقار إليه من أعظم الأدوات لمثل هذه المهام.

* * *

نجد صدق الوعد في إسماعيل ضمن أوصاف نحتاج لعمر ننفقه لتحصيلها، معايشة دينه مع نفسه وأهل بيته فيأمرهم بالصلاة والزكاة مراقبًا فيهم حقوق الله وعلى رأسها الصلاة، وحقوق الخلق وعلى رأسها الزكاة، رجلاً صادقًا في مأخذه لهذا الدين: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴾ [مريم: ٥٤ - ٥٥].

صدق وعد حتى لو كلفه أن يصبر على الذبح راضيًا مختارًا ..

كيف نعايش هذا .. كيف تكون بيوتنا .. أولادنا وأهلونا .. وكيف قيامنا عليهم؟!.

* * *

واضح في كلامهم مع الإيمان أدبٌ جمّ ..

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأعراف: ٥٩ - ٦٠].

فماذا كان رده عل اتهامه بالضلالة البينة؟: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٦١-٦٢].

ومع هود كذلك: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [الأعراف: ٦٥ - ٦٦].

فماذا كان رده على اتهامه بالسفاهة؟: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ [الأعراف: ٦٧ - ٦٨].

وفى موضع آخر: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ ۖ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ ۚ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [هود: ٢٧ - ٣٠].

وفى شأن صالح قال تعالى: ﴿ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾ [هود: ٦٢ - ٦٣].

وقال تعالى في شأن شعيب: ﴿ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود: ٨٧ - ٨٨].

هذا الأدب في مقابل الاستفزاز والجهالة فلا يزدادون إلا حلمًا، هذا مع الحقائق التي يبلّغونها فلا يأتي الأدب على حساب الحق الذي يحملونه.

* * *

النصح والشفقة الشديدان النابعان من علمهم بخطورة الموقف على قومهم وما يؤديه واقعهم إلى خسارتهم في الدنيا وفى الآخرة فعلمهم بالآخرة وتصورهم لها تصورًا كاملاً وحقيقيًا دفعهم لهذه الشفقة والإلحاح:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴾ [نوح: ٥]، ﴿ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ ﴾ [نوح: ٧].

﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴾ [نوح: ٨-١٠].

﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ [نوح: ١٣ - ١٤].

وكان كل نبي يعرب عن خوفه على قومه فقال عن هود: ﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأحقاف: ٢١].

وقال نوح: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف: ٥٩].

وقال عن صالح: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ [هود: ٦١].

وقال عن شعيب: ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ [هود: ٨٨ - ٨٩].

إنها الطيبة والإخلاص والشفقة على الخلق مع البراءة من الشرك ومن المخالفة الشرعية.

بل ويعربون عن أسفهم وحزنهم على هلاكهم بعد استفاضة البلاغ وبعد أخذهم، فقال تعالى عن صالح: ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٩].

وقال عن شعيب: ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٩٣].

ولم يكن خوفهم على أممهم كلمات مجاملة بل هم في القمة من الصدق .. فقد كان هذا هو شعورهم الحقيقي، ولا يكون هذا إلا مع معرفة ما هي النار.

* * *

كل هذا مع بشريتهم ورحمة الله لبشريتهم لتتأسى في هذا فلا تنقطع في الطريق ولا تيأس .. ولنرحم إخواننا ونرحم بشريتهم: ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٨٤ - ٨٦].

﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾ [هود: ٤٢ - ٤٣].

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [هود: ٤٥ - ٤٧].

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ ﴾ [التوبة: ١١٣ - ١١٤].

* * *

الخوف الشديد من المخالفة. يأمر الله نبيه أن يقول: ﴿ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴾ [الزمر: ١٣ - ١٤].

وأمره أن يبلغ: ﴿ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [الأنعام: ١٥ - ١٦].

ويقول نوح: ﴿ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [هود: ٣٠].

وقال صالح: ﴿ فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾ [هود: ٦٣].

مع تجريدهم لبشريتهم وأنهم مأمورون: ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الأحقاف: ٩].

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [العنكبوت: ٥٠].

* * *

الغيرة لله والغضب له؛ تعللوا لشعيب أنهم ما تركوا رجمه إلا لمكان رهطه فغضب لربه لا لنفسه فقال: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ ۖ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [هود: ٩٢].

وقال عن هود: ﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٠ - ٧١].

وقال تعالى عن موسى: ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٥٠].

﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴾ [طه: ٨٦].

﴿ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ﴾ [طه: ٩٢ - ٩٤].

* * *

وغير هذه المواقف كلها مطروح لكن مقصدنا الأساسي هو بيان أن الأمر لا يتم إلا بمعايشة واحتكاك بشخصياتهم من خلال كلامهم ومواقفهم وانفعالاتهم كل هذا من خلال معايشة كتاب الله تعالى وقراءته طلبًا لهذه الرؤية وطلبًا لهذا المأخذ، ومعرفة ما وراء الكلمات والمواقف من البعد وما يلزمها من المعاني التي لا تصدر الكلمات والمواقف إلا مع وجودها.

من أجل هذا يقرأ كتاب الله وتكرر قراءته مرات ومرات، تقف كثيرًا وتكرر كثيرًا ولا تشبع لأن نفسك تواقة ومحتاجة بشدة إلى معايشة هؤلاء الكرام ..

* * *

هكذا ينتج القرآن أشخاصًا في كل جيل لا يتقيدون بحدود زمنهم ولا يتأثرون بغالبية الناس في زمانهم بل يتخطون الحدود ويتصلون بأولئك الكرام - وعلي رأسهم أفضلهم وسيدهم محمد ﷺ - فيتأثرون بهم إلى حد ما قسم لهم، ويعودون بقسمات مختلفة وملامح جديدة.

ومن ثم يغيرون زمانهم وأمتهم للخير ويخرجون بها من أزمتها، وما هي إلا مواقف لكن لها عمقها ولها جهدها المبذول سلفًا للوصول إليها .. للقدرة على بيان الحق وللقدرة على عرضه وبلاغه ونصره، ومنازلة الباطل.

* * *

ثانيًا: استعراض هذا المقصد في كتاب الله تعالى
مع الشخصيات المؤمنة بعد الأنبياء مواكب طيبة وأفرادًا بارزين

غالب من يذكرهم القرآن من عموم المؤمنين هم أشخاص لهم موقف قوي في اختيار الحق كسحرة فرعون، قال السلف: كانوا أول النهار سحرة فجرة ثم آخر النهار شهداء بررة.

أي قوة يتحولون بها من مرتزقة متسولين متزلفين للقرب من فرعون إلى قوم كرام .. كبار .. معلمين .. أساتذة .. يأمرون فرعون وينهونه .. يستصغرونه ويضعونه حيث وضعه الله .. في مكانه الطبيعي .. عبد ضعيف .. ينصحونه ويشفقون عليه .. ويعرضون طعم النعمة التي ذاقوها يرجون أن لو ذاقها.

أي قوة .. أي إيمان وليد موقف على غير العادة .. لكنها لحظة اختيار نجحوا فيها وآثرهم بها رب العالمين.

أي إيمان .. أي وضوح .. أي رغبة في الآخرة غلبت عليهم فهان عليهم كل شيء.

* * *

وإخوانهم أصحاب الأخدود، رغم أن السحرة على شريعة موسى وأصحاب الأخدود على شريعة المسيح .. لكنهم كلٌ آمن بربه فوحده ولم يشرك به شيئًا واتبع الشريعة التي أُمر بها في زمانه .. فهم إخوان ..

نفس الاختيار .. ونفس الاستعلاء على الباطل فاستعلوا على حريق النار.

يقول الأستاذ سيد قطب: «وتبدأ الإشارة إلى الحادث بإعلان النقمة على أصحاب الأخدود: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾، وهي كلمة تدل على الغضب، غضب الله على الفعلة وفاعليها، كما تدل على شناعة الذنب الذي يثير غضب الحليم، ونقمته، ووعيده بالقتل لفاعليه.

ثم يجيء تفسير الأخدود: ﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ﴾ والأخدود: الشق في الأرض. وكان أصحابه قد شقوه وأوقدوا فيه النار حتى ملأوه نارًا، فصارت النار بدلاً في التعبير من الأخدود للإيحاء بتلهب النار فيه كله وتوقدها.

قتل أصحاب الأخدود، واستحقوا هذه النقمة وهذا الغضب، في الحالة التي كانوا عليها وهم يرتكبون ذلك الإثم، ويزاولون تلك الجريمة: ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾، وهو تعبير يصور موقفهم ومشهدهم، وهم يوقدون النار، ويلقون بالمؤمنين والمؤمنات فيها وهم قعود على النار، قريبون من عملية التعذيب البشعة، يشاهدون أطوار التعذيب، وفعل النار في الأجسام في لذة وسعار، كأنما يثبتون في حسهم هذا المشهد البشع الشنيع!.

وما كان للمؤمنين من ذنب عندهم ولا ثأر: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾، فهذه جريمتهم أنهم آمنوا بالله، العزيز: القادر على ما يريد، الحميد: المستحق للحمد في كل حال، والمحمود بذاته ولو لم يحمده الجهال! وهو الحقيق بالإيمان

وبالعبودية له. وهو وحده الذي له ملك السماوات والأرض وهو يشهد كل شيء وتتعلق به إرادته تعلق الحضور.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴾.

ثم هو الشهيد على ما كان من أمر المؤمنين وأصحاب الأخدود .. وهذه لمسة تطمئن قلوب المؤمنين، وتهدد العتاة المتجبرين. فالله كان شهيدًا. وكفى بالله شهيدًا. وتنتهي رواية الحادث في هذه الآيات القصار، التي تملأ القلب بشحنة من الكراهية لبشاعة الفعلة وفاعليها، كما تستجيش فيه التأمل فيما وراء الحادث ووزنه عند الله وما استحقه من نقمته وغضبه. فهو أمر لم ينته بعد عند هذا الحد، ووراءه في حساب الله ما وراءه.

كذلك تنتهي رواية الحادث وقد ملأت القلب بالروعة. روعة الإيمان المستعلي على الفتنة، والعقيدة المنتصرة على الحياة، والانطلاق المتجرد من أوهاق الجسم وجاذبية الأرض. فقد كان في مُكْنة المؤمنين أن ينجوا بحياتهم في مقابل الهزيمة لإيمانهم. ولكن كم كانوا يخسرون هم أنفسهم في الدنيا قبل الآخرة؟ وكم كانت البشرية كلها تخسر؟ كم كانوا يخسرون وهم يقتلون هذا المعنى الكبير: معنى زهادة الحياة بلا عقيدة، وبشاعتها بلا حرية، وانحطاطها حين يسيطر الطغاة على الأرواح بعد سيطرتهم على الأجساد! إنه معنى كريم جدًا ومعنى كبير جدًا هذا الذي ربحوه وهم بعد في الأرض. ربحوه وهم يجدون مس النار فتحترق أجسادهم، وينتصر هذا المعنى الكريم الذي تزكيه النار؟ وبعد ذلك لهم عند ربهم حساب، ولأعدائهم الطاغين حساب .. يعقب به السياق»[1].

* * *

أو رَجُلٌ انبرى يدافع عن هذا الدين وسط الأفاعي .. **مؤمن آل فرعون** .. لم يعبأ بشيء وهو في بلاط فرعون تستولي على قلبه هيبة الله ويحدوه علمه بسننه: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ [غافر: ٢٨]، ﴿ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ ﴾ [غافر: ٢٩].

مشفق ناصح: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ [غافر: ٣٠-٣٣].

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [غافر: ٣٨-٤٠].

---

(١) سيد قطب في ظلال القرآن.

﴿ وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴾ [غافر: ٤١-٤٣].

واثق ومتوكل: ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [غافر: ٤٤].

فيفوز بالدارين ويصدق الله كلامه ويعلي شأنه، ويخسر عدوه: ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٥].

من أين جاء بهذا العلم؟ وبهذه القوة؟.

وبهذا القلب الندي المتصل بالله تعالى وبهذا اليقين العجيب؟.

وكيف كانت هذه الثقة في ربه وفي وعده؟

وكيف هذا النصح والشفقة وحب الخير للخلق؟.

فليُنظر في هذه المعاني.

* * *

رَجُلٌ[1] يكتم إيمانه وفي لحظة ما لما سمع تهديد الرسل يأتي مهرولاً ناصحًا: ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [يس: ٢٠-٢١].

وضوح في عقيدته .. لم تطمس عقيدتَه عقائدُ المتكلمين ولا فروخ المبتدعة من المرجئة والجهمية القدماء أو المعاصرين !! : ﴿ وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يس: ٢٢].

فيذكر توحيده ربه وموجب هذا التوحيد: أن الله فطره .. وإليه مرجعه، فيذكر من صفات الربوبية ما يوجب إفراده بالألوهية وتعلق القلب به سبحانه وتعالى وحده.

ويؤكد على ترك الشرك مع بيان سبب بطلانه: ﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [يس: ٢٣-٢٤].

ثم يصيح صيحته ﴿فَٱسْمَعُونِ ﴾ : ﴿ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴾ [يس: ٢٥].

هذه مواقف إشهاد يجب الإعداد لها .. يجب أن نتغيّا هذه الصورة .. وضوح الحق .. والإقدام فيه ونصره والثبات عليه.

* * *

موقف إقدام مع ثقة ونصر يتخذه رجلان لا نعرف اسمهما ـ ولا يضرهما ـ فيذكرهما الله تعالى في تلاوة المحاريب إلى يوم الدين: ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: ٢٣].

---

(١) مؤمن ياسين.

يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله تعالى: «هنا تبرز قيمة الإيمان بالله، والخوف منه .. فهذان رجلان من الذين يخافون الله، ينشيء لهما الخوف من الله استهانة بالجبارين! ويرزقهما شجاعة في وجه الخطر الموهوم! وهذان هما يشهدان بقولتهما هذه بقيمة الإيمان في ساعة الشدة؛ وقيمة الخوف من الله في مواطن الخوف من الناس. فالله سبحانه لا يجمع في قلب واحد بين مخافتين: مخافته ـ جل جلاله ـ ومخافة الناس .. والذي يخاف الله لا يخاف أحدًا بعده؛ ولا يخاف شيئًا سواه: ﴿ ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ﴾.

قاعدة في علم القلوب وفي علم الحروب .. أقدموا واقتحموا. فمتى دخلتم على القوم في عقر دارهم انكسرت قلوبهم بقدر ما تقوى قلوبكم؛ وشعروا بالهزيمة في أرواحهم وكتب لكم الغلب عليهم .. ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.

فعلى الله ـ وحده ـ يتوكل المؤمن .. وهذه هي خاصية الإيمان وعلامته؛ وهذا هو منطق الإيمان ومقتضاه»(١).

* * *

مواقف يقين عند الخوف حين تختلط الأمور على الناس كلها .. فيبقون يُذكرون بهذه الأوصاف: ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

ومواقف يقين عند بريق الشهوة وفتح الدنيا على الشخص فيهتز من يهتز من الضعاف، ويثبت أهل الثبات الذين نعموا بنعمة الله تعالى بالصبر واليقين: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾ [القصص: ٧٩-٨٠].

* * *

يقاتلون مع النبيين .. فيؤذون فيثبتون:

١ - ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، فهنا يبرز قتالهم مع النبيين.

أو ـ حسب الوقف والابتداء على وجهي التفسير ـ يبرز دورهم مع النبيين أثناء القتال الطويل ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾، فهنا يبرز قتال النبيين أنفسهم، ثم يبين ثبات الربيين معهم.

٢ - أو يقتل النبيون ويبقون من بعدهم فيثبتون، أو يُقتل الربيون أنفسهم ـ حسب القراءة؛ فهذه قراءة أخرى(٢):

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن.

(٢) قراءة ابن كثير ونافع وأبو عمرو ويعقوب.

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾، وهنا يبرز استشهاد الربيين .

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾، وهنا يبرز استشهاد النبيين ثم يبين ثبات الربيين بعد قتل الأنبياء على نفس المنهج لم يضعفوا عنه.

ويبقى دعاؤهم .. يهضمون نفوسهم .. يرون تقصيرها .. ويفتقرون إلى الله في الثبات فلا يعجبون بنفوسهم .. ويطلبون النصر على عدو ما عادوه إلا لوصف واحد هو الكفر.

فعدوهم هو عدو ربهم ومن أجل هذا عادوه .. وهذا فرع على حبهم لله فمن حبهم لله بغضهم لأعدائه .. وطلبهم إعلاء محبوباته من الأفعال والشرائع والأوضاع التي يحبها سبحانه: ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٧ - ١٤٨].

* * *

ثم انظر إلى قمتهم في صحابة محمد ﷺ: ﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح: ١٨].

وقف كثيرًا أمام: ﴿ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ ﴾، هذا ما يجب أن تبحث عنه .. تبحث عما في قلبك.

﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾[الحشر: ٨]، هكذا كان هذا الدين هو محور حياتهم .. ثم تأتي الزوجة والولد والدار والمال بعد، في ذلك الترتيب، وعند التعارض يعرفون التصرف الصحيح ويزنون بميزان رب العالمين.

إلى أي درجة هذا الدين في نفسك؟.

واحذر عند الإجابة فعند المحكات العملية لا ينفع الادعاء.

ثم يذكر تعالى صنفًا آخر من أصحاب محمد ﷺ: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٩].

قلوب لا تنظر إلى ما في أيدي إخوانها ولا لما فضلت به عليهم حتى لو تفضيلاً دينيًا .. نعم يرجو أن يكون مثله .. لكن ليس في نفسه ألمٌ أن أخاه أوتي فضلاً من الله .. قد تكون قصة الرجل والمرأة الذين آثرا ضيفا رسول الله على أنفسهما بل وعلى أبنائهما أحد صور المعنى .. لكن الأمر أوسع من هذا.

فسبب النزول هذه القصة وغيرها .. لكن المعنى أعم من هذا، وهذا الأمر بالذات يحتاج إلى مراجعة كثيرة بسبب طبيعة النفوس المعاصرة ..

إن الناس تتألم لفتات حقير فضل أخوه عليه به، رغم أنه لو أوتي هذا قد يفسده، فالله أعلم بما يصلحنا[١] .. فهذه آية تصف شخصيات .. لتصل إليها تحتاج إلى جهد وتطهير نفس وتزكية وأن تجعل الوصول إليهم هدفك .. فقد جعل سبحانه شرط قبول من بعدهم أن يحبونهم ويثنوا عليهم وأن يستغفروا لهم ويعترفوا بفضلهم وأن يتبعوا سبيلهم بإحسان: ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [الحشر: ١٠].

﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١٠٠].

* * *

ثم يأتي رجل كريم .. أبو بكر الصديق ﷺ .. حينما تنقطع به الأمور هو ورسول الله ﷺ في الغار يطارَدان بغرض القضاء على هذا الدين .. لحظة كانا مدار هذا الدين ونصره عليهما .. كان ينصر الله ورسوله .. كان يتقدم بين يدي رسول الله إذا ذكر أن العدو يمكن أن يأتيه من أمامه، وإذا ذكر أنه يمكن أن يأتيه من خلفه سار خلف رسول الله وهكذا عن يمينه وعن شماله، وكان يقول إن متُّ فرجل وإن متَّ أنت فأمة: ﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٤٠].

يقول البيضاوي: «﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ ﴾ أي: إن لم تنصروه فسينصره الله كما نصره ﴿ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ ﴾، ولم يكن معه إلا رجل واحد فحذف الجزاء وأقيم ما هو كالدليل عليه مقامه»[٢].

* * *

وعندما تسمع بعد ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ﴾، فاعلم أنهم قوم كان في ثباتهم ثبات هذا الدين حتى اليوم، وفي إيمانهم إيمان من جاء بعدهم، مقام أحدهم مع رسول الله لا يوزن؛ فقد كان أثره إلى يوم القيامة. نحن اليوم آمنا بالله ورسوله بسبب مقامهم هذا .. غدوتهم أو روحتهم .. خطواتهم يستخْفون بها لنصر هذا الدين في أول أمره ..كان له ما بعده، وكان وزنه ثقيلاً عند الله ولهذا قال رسول الله ﷺ لخالد لما كان بينه وبين طلحة بن عبيد الله شيء: «يا خالد دع عنك أصحابي».

روى عبد الله بن الإمام أحمد قال: حدثنا عبد الله قال حدثني أبي قثنا محمد بن عبيد عن إسماعيل يعني بن أبي خالد عن عامر قال شكا عبد الرحمن بن عوف خالد بن الوليد إلى رسول

---

(١) يراجع فصل الاستشفاء بالقرآن العظيم، في هذا الكتاب، في علاج آفة الحسد.
(٢) تفسير البيضاوي، جـ ١، ص ١٤٦.

الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «يا خالد مالك وما لرجل من المهاجرين لو أنفقت مثل أُحد ذهبًا لم تدرك عمله»[١].

وقال ابن عمر: «لا تسبوا أصحاب محمد فلمقام أحدهم ساعة خير من عمل أحدكم عمره»[٢]. وقال أيضًا: «لا تسبوا أصحاب محمد فلمقام أحدهم ساعة خير من عبادة أحدكم أربعين سنة»[٣].

وعن أبي سعيد الخدري قال النبي ﷺ: «لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أُحد ذهبًا ما أدرك مد أحدهم، ولا نصيفه»[٤].

ومن مراسيل الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل أصحابي في الناس كمثل الملح في الطعام»، ثم يقول الحسن: هيهات ذهب ملح القوم[٥].

وعن أنس بن مالك قال: قال أناس من أصحاب رسول الله ﷺ: يا رسول الله إنا نُسَبّ ! فقال رسول الله ﷺ: «من سب أصحابي فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه صرفًا ولا عدلاً»[٦].

وعن ابن مسعود: «من كان منكم متأسيًا فليتأس بأصحاب محمد ﷺ فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوبًا وأعمقها علمًا وأقلها تكلفًا وأقومها هديًا وأحسنها حالاً، قومًا اختارهم الله لصحبة نبيه وإقامة دينه؛ فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوهم في آثارهم فإنهم كانوا على الهدى المستقيم»[٧].

إنهم قوم تعرفوا على الحق حين عميت عنه الأبصار وتنكرت له أخرى، وببركة ثباتهم على هذا الدين أسلم من بعدهم ولحِق بهم من خلفهم، ونحن اليوم مسلمون ببركة هذا الثبات[٨].

وهكذا في مواقف الفتنة والأوقات العصيبة؛ من يثبت يثبت بثباته أمة، ويحفظ له موقفه إلى قيام الساعة، ويستنقذ بثباته على الحق الكثير من الغرقى.

هنا الأسوة، وهذا ما يجب أن نعد له دائمًا. كما فعل هؤلاء الذين نجونا بثباتهم؛ فجزاهم الله عنا وعن الخلق خير الجزاء.

* * *

(١) فضائل الصحابة، جـ ١، ص ٥٥.
(٢) المصدر السابق، جـ ١، ص ٥٧.
(٣) المصدر السابق، جـ ١، ص ٦٠.
(٤) المصدر السابق، جـ ١، ص ٥٠.
(٥) المصدر السابق، جـ ١، ص ٥٨.
(٦) المصدر السابق، جـ ١، ص ٥٢
(٧) الموافقات، جـ ٤، ص ٧٨ - ٧٩.
(٨) بعد فضل الله تعالى.

ثالثًا: استعراض هذا المقصد في عَرْض القرآن لنساء مؤمنات لهن وزنهن في هذا الدين إلى يوم القيامة

عَرَضَ امرأة تعالت على السلطة والمال والدنيا والقصور وآمنت واستشهدت طالبة من ربها ـ دعاءً وتضرعًا ـ عوضًا بجواره عن جوار فرعون، وكان بيدها أن تكون لها صولة تسمع لها الدنيا .. هذا اختيار يسقط فيه أحيانًا من ينتسب إلى علم شرعي أو ادعاء دعوة أو غيره .. لا يسقط بمثل هذا الذي تخلت عنه آسية بل بقلامة ظفر مما تقربت بتركه لله. هذه تحتاج إلى معايشة من المسلمين ومن المسلمات ليعرفوا بأي شيء ضحوا لله في مقابل أن يكون الموت أحيانًا هو البديل ناهيك عن ترك حظ قليل من حظوظ الدنيا، أو تفاوتًا بين مراتب أهلها: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم: ١١].

* * *

أختها في هذا الدين مريم العابدة بشريعة المسيح عليه السلام، فهما مؤمنتان بدين واحد، وكلٌ اتبعت ما أمرت به في زمانها من الشرائع.

جُعلت رمزًا للعفة، وكثير كثير هن المؤمنات العفيفات لكن هذه عفة خاصة مع تعبد متميز.

ففي واقع كواقعنا المعاصر؛ يدغدغ الشهوات ويلعب على أوتارها ويلح عليها .. وتهون فيه أعراض كثيرة، بل وتتنافس البعض في إظهار ما حرم الله من الزينة على سبيل التزين والتباهي، وإظهاره أمام الخلق بلا حياء ..كم تحتاج المسلمات أن تنطبع بمثل هذه .. حتى أن الله تعالى لينص على عفتها نصًا: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١]، ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢].

وموقف هام عندما يُعد أحد للاصطفاء ولمهمة خاصة، ولتحمل مشاق لا يتحملها سواه أو ليحمل عبئًا خاصًا، أو يهيأ لتفضيل معين، هناك إعداد لهذا الشرف، وهذا الإعداد هو التعبد الخاص لرب العالمين: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢ - ٤٣]، فهو اصطفاء لتعبد سابق، ولما يعلمه تعالى فيها من الخير، وهو مؤهِل لتعبد آخر تهيئة للمهمة القادمة.

ولهذا يقول الحافظ ابن كثير رحمه الله: «ثم أخبر تعالى عن الملائكة أنهم أمروها بكثرة العبادة والخشوع والركوع والسجود والدأب في العمل لما يريد الله بها من الأمر الذي قدره الله وقضاه مما فيه محنة لها ورفعة في الدارين بما أظهر الله فيها من قدرته العظيمة حيث خلق منها ولدًا من غير أب فقال تعالى: ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾، أما القنوت فهو الطاعة في خشوع كما قال تعالى: ﴿بَلْ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾.

وقال مجاهد: كانت مريم عليها السلام تقوم حتى تتورم كعباها، والقنوت هو طول الركود في الصلاة يعني امتثالاً لقول الله تعالى: ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ﴾، قال الحسن: يعني اعبدي لربك ﴿وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ أي: كوني منهم، وقال الأوزاعي: ركدت في محرابها راكعة وساجدة وقائمة حتى

نزل الماء الأصفر في قدميها رضي الله عنها وأرضاها. وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمتها من طريق محمد بن يونس الكديمي وفيه مقال: حدثنا على بن بحر بن بري حدثنا الوليد بن مسلم عن الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير في قوله: ﴿ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي ﴾ قال: سجدت حتى نزل الماء الأصفر في عينيها»[1].

هكذا يتربى المجاهدون، والدعاة، وحَمَلة هذا الدين.

* * *

تُخَيَّر زوجات النبي ﷺ بين بيت النبوة مع شظف العيش بل ثلاثة أشهر لا يوقد في بيوتهن نار فلا يطبخ في بيوتهن شيء .. وكان هذا بسبب إيثاره ﷺ أضيافه وإخوانه ومحاويج المسلمين على نفسه وأهل بيته،كما قالت عائشة رضي الله عنها: لو شئنا أن نشبع شبعنا و لكن محمدًا ﷺ كان يؤثر على نفسه[2].

يُخيَرن بين هذا وبين التسريح الجميل فلا يفكرن ولا يستأمرن أحدًا بل اخترن الله ورسوله حتى ألزمه الله بهن في الدنيا لأنهن قد اخترن له أيضًا في الآخرة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾ [الأحزاب: ٢٨ - ٢٩].

فلما اخترن أنزل الله تعالى مُلزمًا نبيه بهن لأنهن صرن زوجاته في الدنيا والآخرة: ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا ﴾ [الأحزاب: ٥٢].

من تقرأ القرآن فلتعش ـ لا تقرأ فقط ـ بل تعيش مع هؤلاء، سيغيرن هذه الشخصيات الهزيلة المعاصرة .. سيغيرن الادعاء المتفشي بمضمون ضعيف إلى ما هو أفضل ..

كم نحتاج إلى هذا؟ وكم تحتاج نساؤنا وبناتنا وأخواتنا لهذا وكم نحتاج جميعًا إلى هذا؟.

* * *

هذا كنز مفتوح وفرصة لا تعوض .. أن تعيش هنا مع الأنبياء، ومع خير الخلق بعدهم، وأن تطوي الزمان لتعايشهم ثم ترجع بصفاتهم وعمقهم وملامحهم إلى واقعنا المعاصر .. كم يحتاج الزمان إلى هذا .. بل والوجود كله.

اختر ما تشاء.

هكذا يُقرأ القرآن .. وهكذا يُفهم .. وهكذا نتأثر به .. ومن أجل هذا تكون تكرار القراءة كثيرا آناء الليل وأطراف النهار من أجل معايشة هؤلاء الكرام والتأثر بهم ومحاولة اللحاق بهم .. فمن قرأ ولم ينطبع بهؤلاء فليقرأ ثانية وثالثة ..

ففي هذا تفنى الأعمار، وفي هذا الكتاب الكريم تكون التربية ..

---

(١) تفسير ابن كثير، جـ ١، ص ٤٨٢.
(٢) شعب الإيمان، جـ ٢، ص ١٧٣.